بورخيس صانع المتاهات

مع آيت لعميم في متاهة ترجمة الأعمى حارس المكتبات

محمد صلاح بوشتلة

جامعة القاضي عياض.

بورخيس صانع المتاهات(1) كتاب يبقى من الكتب القليلة التي ما إن تقع بين يديك؛ تتصفح فهرستها، تقرأ بعضاً من صفحاتها، حتى تهمس لجني القراءة الذي يسكنك: "يا بُشْرَايَ هذا كتَاب!"، إنه كتاب يأخذك فيه المترجم من يدك، ويقودك في نزهة اختار جيداً مسالكها، ودروبها، ولفّاتها، ليهبنا إلى جانب متعة الرفقة الصّالحة لخورخي متعةً أخرى، متعة استرداد الأمل في القراءة والإيمان بجدوى العودة للمكتبات والكتب، وكل هذا بالطّبع مع منحنا أدوات صنعة اختلاق المعاني المبتكرة من أي شيء ومن لا شيء، مع إمدادنا بطرق التقاط الاستعارات غير العادية من مسرح الحياة العادية، في مرحلة زمنية حاسمة تكالبت، فيها، علينا هواتفنا، وأُصبنا جميعاً بمتلازمات التّطبيقات السّيبرنطقية التي أقصت الأندية الأدبية، وأقصت الذاكرة، أي قتلت فينا أجمل ما فينا.

بدايةً، يتوجب علينا أن نجيب عن سؤال لا يجوز لنا أن نتجنبه بسهولة لأن التغافل عنه ضرب في صلاحية القراءة: ما الشّيء الذي دعا المترجم لتخصيص كتاب بأكمله لخورخي بورخيس؟ هل الأمر يتعلق باستجابة كريمة من محمد آيت لعميم لدعوة أرملة بورخيس ليصنف كتاباً عنه بعدما رأته من هوسه وسعة معرفته بمنجز زوجها الأدبي؟

ليركب المترجم رأسه بسهولة ويبدأ في هذه المهمة التي أتت فجأة، أم لأن الأمر يتجاوز هذا ليتعلق بروح مراكشية كانت تسكن بورخيس الذي كان معجباً بآذانها، ساحتها، وطريقة عيش أهلها، لدرجة أنه فكر بجدية في اتخاذ سكن له فيها لكونها، بساحتها، تجسيد رائع لأحلام طفولته(2) لتأتلف الرّوحان: روح بورخيس، المراكشي بالقوة، وروح المترجم المراكشي بالفعل؟ أم أن الأمر يتعلق بأمر آخر قد يكون شفقة المترجم على الأعمى حارس المكتبات؟ فأكيد أننا كلنا نحس بنوع من الشّفقة والتّعاطف نحو من نشعر بأن الطّبيعة منعت عنهم نعمة ما أو كمالاً أنعمت به على آخرين دونهم، وهذه الشّفقة الخفية ما يؤكدها لنا ربما قوله: "لقد بادلني الجميع عطفاً لا يصدّق. ليس لدي أعداء، وحتى إن زعم البعض أنهم أعدائي فقد كانوا ذوي أريحية سخية ولم يسيئوا إليّ، أبداً"، لكن، مع الأسف، قد لا يكون هذاً سبباً وجيهاً لتخصيص كتاب بأكمله، نحو واحد ممن حضوا بشفقتنا، خاصة ضمن حضارة أشتهر من بين شيوخ العلم والفقه فيها كثير من المكافيف، كالفخر الرازي، وابن سيده، والمعري وغيرهم لا قبل لنا بعدّهم، خصصت لهم كتب الطبقات والتراجم فصولا بعينها، حتى نُسِبوا إلى كمال الذّاكرة وجودة العبارة وقوة الحجة، أي أنهم كلهم من طينة فونيس قوي الذّاكرة وشبيه قورش، الحاكم الفارسي الذي كان يستطيع أن يُنادي كل جندي من جنود جيوشه باسمه الكامل. الطبيعة إذن بالعدل الذي يجعلها تعطي بيد ما منعته بيد، بشكل تنسف به أي مصداقية للشفقة، فبورخيس هذا الأعمى مثلاً كانت له قدرة تذكر كل ما قرأه، لذا لم يكن غريباً مثلاً استظهاره إلى ما لا نهاية لديوان **أزهار الشّر**(3).

الضّرير، بالتّأكيد، يمتلك من المواهب، ما لا يمتلكه صحيح البصر، ولا ننسى هنا، أن هوميروس كان أعمى، وأرسطو الذي جمع أبناء البشر بعضهم ببعض بفلسفته، كان

ضعيف البصير لأقصى الحدود، وبورخيس إلى جانب كل هؤلاء كانوا أشد الناس حجة، وأَقوَمهم برهاناً وأنظَرهم عبارة، بشكل يبز المبصرين، ونقيس على هذا باقي صنوف وتقلبات الحياة، لهذا ربما الصّفدي لم يتورع أن يعقد فصلاً، في كون العميان، هم أكثر النّاس نكاحاً وباهاً متفوقين على غيرهم من غير المكافيف(4)، أما مسألة العمى فهم يتغلبون عليه برواقيتهم التي يتملكون سائر تقنياتها ببساطة، بشكل جعل بورخيس لا يقبل بالعمى فقط، بل يمتدح عَيشه بين العتمة والضّلال، وفي تناقض ساخر يستبد بالروح التي ترفض أي إحساس بالشفقة، يعُدُّ خورخي أن الهبتين اللّتين تخللتا حياته هي: الكتب والظّلام، فرغم العجز عن قراءتها، يبقى خورخي من أكبر القرّاء على الإطلاق، يقرأ العالم من خلال كتبه. تؤكد خادمته أنه كان يخفي الأوراق المالية، ويعرف بسهولة من عنوان الكتاب المبلغ الذي خبّأه بين الصفحات، وقيمة تلك الأوراق المالية، وأنواعها من خلال فصول الكتب، دون أن يجد أمام عاهته هذه، ضرورة ماسة، لتعلم القراءة بطريقة برايل، بل الأدهى من هذا كله أن يفقد بصره في السّنة التي يعين فيها كرئيس لمكتبة تحوي تسعمائة ألف كتاب، وهو الذي درس على والده المحامي تناقضات ومفارقات زينون والسّفسطائيين.

تبقى مسألة تخصيص آيت لعميم لكتاب لخورخي، مسألة تتعدى كل هذه التّخمينات المتعلقة بالهواجس النّفسية، لكي تتعلق الرغبة في الاشتغال على ميراث خورخي لا بشفقة أو بعاطفة، وإنما بتوجه عنصري يستبد بالمترجم ! نعم، توجه عنصري. انحياز المترجم الذي يقع جغرافيا على أقصى ساحل الأطلنتي غرباً، نحو خورخي بورخيس الذي عاش طرفاً مهما من حياته في أقصى الأطلنتي شرقاً هو انحياز مفضوح نحو آيت لعميم نفسه، إن لم نقل نحو شبيهه الذي يشترك معه كل شيء: هوسه بالكتب،

واشتغاله بالتّرجمة، ورغبته الجموحة في معانقة كل العوالم وأشكال التّعبير عن الذّات، وعصاميته في تعلم كل ما يمكن تعلمه، وجنوحه الشّعري، وعدم التّقوقع في تخصص بعينه، وحبه للفلسفة مع العودة المتكررة للتاريخ، إلى جانب تمتعهما، جميعاً، بتواضع لا يمكن نكران أنه يحمل ضغائن مضاعفة للمتحذلقين المحتمين بالغطرسة وبطبقات من الجهل، وسخريتهما اللاذعة المحتمية بمطامع زرع الحب وبث التّسامح بين البشر، ولو على مستوى صياغة حلم يُبلسم أحزان النّاس جميعاً، علاوة على أن كلاهما كانت القراءة لديه شعيرة والكتابة نُسُك وقربان.

نقط تشابهٍ كثيرة، تلك التي تجمع المترجم بالمتَرجَم له، فإلى جانب كونهما يهيمان في دنيا الأدب، مستبداً بهما نهم القراءة، فكلاهما يتملّكهما حماس زائد بعظمة النصوص العالمية، بعيداً عن سؤال الأقلمة ومحاولات القومنة الشوفينية الأفق، فآيت لعميم تخلى عن حبه القديم للمتنبي، ليُقْدِم، منذ مدة بعيدة، ويُقْبل على ترجمة الكثير من الأعمال لأدباء ونقاد لا يعترفون بأي جدوى للمركزيات، ما دام أن الأدب والحكايا غير موجودة في أوربا وحدها، وفي سياق بعينه، بل في قرى العالم كله، فكانت بذلك محاولات التعريف بكثير من هؤلاء، لذا كانت محاولاته المتكررة لأجل التعريف بخوان غويتيسولو وأعماله، والتعريف بـ بيترو تشيتاتي الذي كان تخصصه الكبير هو كتابة كتب تعريفية بعباقرة الأدب منذ زمن هوميروس إلى زمن كافكا وبروست، كما وعرّف بـ موريس أولندر والقائمة أعسر على الحصر، من هنا لربما أتى اهتمام "سي" آيت لعميم ببورخيس؛ خاصة من جهة أنه استطاع استيعاب الموروث الإبداعي والفكري والفلسفي لحضارات مختلفة، ليترك الجميع يشتبك ويتحاور من خلال أعماله، فيحضر ابن رشد إلى جانب اسبينوزا ويحضر شعر الهايكو إلى جانب الموسوعات المفقودة ويحضر سيرفانتيس إلى جانب

شهرزاد التي شغف بها وداوم على التّذكير بمناقبها وبفضائله عليه وعلى البشرية قاطبة وكأنه أمه أو خالته الطّيبة التي تملأ جرابه بالحلوى ورأسه بالحكايا، ويحضر فريد الدّين العطار صاحب السّيمرغ الذي داوم بورخيس على ذكره إلى جانب ليبنيز صاحب المونادات، ويحضر ديكارت كاهن العقلانية إلى جانب عجائب مخلوقات القزويني التي يقبل بوجودها أي عقل. وتحضر مكتبة الإسكندرية التي قِيل إن عدد مجلداتها يفوق حساب الأفلاك أو حبات رمل الصحراء إلى جانب مكتبة بابل التي قد تنبو عليها قليلاً وقد تقل قليلاً، لتكون عناية آيت لعميم بتراث بورخيس وبذكرى بورخيس وباسم بورخيس هي عناية بتوجه فكري يؤمن بالتّعاضد البشري في صياغة المعرفة وتذوقها بلسانٍ عالمي هو في الحقيقة لغتنا الأم.

كل هذا إلى جانب أن المترجم يعرف جيداً أن دوام ذكر عمله التّرجمي يتدخل فيه بشكل ساحر سحر المتَرجم له، وآيت لعميم يعلم جيداً أن اسم خ. ل. بورخيس وهبه صاحبه، من السّحر ما يجعله مكرسا لعدم التآكل مهما طال الزّمن وتطاولت العهود، هذا، بالطبع، إلى جانب عنصرية خفية أخرى من جهة المترجم والمترجم له، على حد سواء، تجاه حضارة لطالما أقصيت من لدن مؤرخي الأدب، عنصرية خفية أعاد من خلالها بورخيس الاعتبار للمنجز العربي في الأدب بشهادة غويتيسيولو: "إن الأدب العربي، الممحو من أفقنا الثّقافي بعد دون كيخوت، لم يعد إلى الظّهور في لغتنا إلا بعد ثلاثة قرون ونصف بفضل بورخيس"(5)، وهي العنصرية الجميلة نفسها التي حاول آيت لعميم أن يطَّلع بها، ليُعطي شيئاً من الاعتبار لخورخي الذي ينسب نفسه للسلالة التي هُجِّرت من الإقليم الأندلسي الذي كان يحكمه، في غير ما مرحلة، أمير مراكشي. فهذا الإلهام العربي الذي كان وراء العديد أعمال بورخيس، يعرف بورخيس أنه هو نفسه الإلهام الذي كان وراء

سرديات إسبانيا وإيطاليا الكبرى(6) المؤسسين للوجه الآخر من الحداثة الغربية التي لا يمثلها ديكارت وحده. هذا الإلهام العربي الذي لا مجال للتغاضي عنه والإنزياح بعيداً عن شأفته، خاصة أمام دراسات الكبير بلاسيوس الذي يؤكد لنا أمبرتو إيكو أنه في أبحاثه "لم يكن يهذي على الإطلاق، على الرغم من تأكيداته المبالغ فيها أحياناً"، وكذا دراسات الموسوعي جداً ليفي بروفنصال، ليكون الحديث عن تأثير مسلمي الأندلس في نصارى الأندلس ليس يجب أن يكون حديثاً غربياً، وإنما حديثاً عربياً خالصاً، فابتداء من المنظومة الكهنوتية التي نشرت في القرن الثّاني عشر، جامعة لإحدى وثلاثين حكاية شرقية الأصل في إسبانية النّصرانية، إلى يوحنا الصّليب (الإبن العبقري لأديان إسبانيا الثّلاث) المتأثر بالطّريقة الشّاذلية للأندلسيين المتأخرين، وصولاً إلى المخطوطة العربية للمؤرخ العربي حامد بن جلي التي اشتريت من يد صبي كان قاصدا بيعها لتاجر حرير في أحد أزقة طليطلة مقابل نصف ريال، ولتترجم من مورسكي يعرف العربية لقاء قليل من الزّبيب، هذه المخطوطة التي ستُعرف، فيما بعد، بـ دون كيخوتي، والتي ستلعب دوراً أساسياً في تحديد مسار ودرجة نبوغ بورخيس إلى جانب ألف ليلة وليلة اللذين يشكل افتتانه بهما، افتتاناً خطيراً بالعرب وهوساً جموحاً بتراث المسلمين، وإن كان الأمر يتم عبر مجموعة كبيرة من المتاهات الملغمة، والخدع التي قد تُضيّع خيوط النّسبة، وتقضي على أي أمل في تحديد درجة التّأثير ومدى التّأثُر.

التّرجمة في قرارة نفس آيت لعميم، ليست لأجل استقبال غريب كما يظنها جورج مونان، أو لتقديم أنموذج محترم لحس الضيافة عند شعب ما، يمثله هنا الشعب الذي ينتمي له المترجم، وإنما لاسترداد ابن شَرِيدٍ ضاع مع من ضاع من شعب صار إلى شذر مذر. وتتعمق مقاصد الترجمة لدى آيت لعميم لتقوم بأدوار حيوية أكثر، إذ رغم أن الترجمة لا

تخدم، هنا، سيرة بورخيس بيننا، ولا ترد له الاعتبار فقط، بل إنها تُوهم الجميع أنّ بورخيس ما يزال حيّا يرافقنا، تماماً كما أوهم أفلاطون الجميع من خلال محاوراته أن معلمه العزيز سقراط ما يزال حي يرزق، حتى مع محاوراته التي لا تصل إلى أي نتيجة، والتي كان فيها أفلاطون يكتب الصفحة الأولى دون أي عناية بصفحة الوصول كما اعتقد بورخيس نفسه(7)، وضداً في هراقليطس يصير من الممكن أن نسبح في النّهر مرتين.

بورخيس صانع المتاهات كتاب يمكن تأطيره، بالنّسبة لي، على الأقل، ضمن كُتب المناقب، فبعيدا عن كونه كتاباً تعليمياً وتوجيهياً، يريد أن ينفث في القارئ العربي شيئاً من ذكاء بورخيس، ويُعرّفه على تكتيك نبوغه، وطرائق صناعة الأدب والكتابة لديه، فإنه، في الوقت نفسه، يُريد أن يعرفنا على بعض كرامات هذا الأديب العجيب وعلى شيء من مناقبه، والتي من بينها معجزة إحياء الموتى، وإنطاق الأكمه من النّصوص والقصائد، ما دام ألا أمل في وجود نص ميت عنده، أي نص نهائي ولا وجود أصلا لفهم تام، فما هو نهائي لا يتعلق في الحقيقة إلا بالكسالى ومن هم على شاكلة الموتى، ولا علاقة له بتفوق في القراءة، أو بطفرة ذكاء تتخلل فطرة هذا الناقد الفائقة أو ذائقته الأدبية الشاذة، لقد كان بورخيس ضد النماذج الجاهزة والمكتملة من داخل النقد والفلسفة والأدب.

بورخيس بعكازته التي تشبه عصا موسى، أو على الأقل عصا أبي يعزى ـ كي نبقى في المغرب بلد المترجم ـ يرى فيه آيت لعميم، أو يجعلنا نرى، نحن قراء الكتاب، رجلاً من الصّالحين، تتفتق بلمسة واحدة، من هذه العصا، أمامه نصوص جديدة، تنسل من نصوص أخرى ميتة أو كادت تموت، يبث فيها من روحه روحاً أخرى تنعش مستغلقاتها فينفجر الغامض منها، وينبثق الطّريق وسط أوّار البحر المتلاطم بالطّلاسم التي تختصر ثراء لم ننتبه له، والمترجم من خلال ترجمته لهذا الكم من الدّراسات يود أن يمد كل قارئ

بعصاه الموسوية، وما أكثر النّصوص لدينا والأفاعي، لكنها كلها تغيب عنها عصى موسى، فكما تُورّثنا قراءة بورخيس شيئاً من الذّكاء، فقد نرث عنه حتى عصاه، أي بركته التي كان يتحسس بها نسغ النّصوص التي سيكون لها شأن، وستكون لها بين العباد صولة وجولة، فبورخيس لم يعتقد أن للذكاء علاقة بعمل الكاتب(8)، الشّيء الذي يجعلنا نعتقد في بركة ما أو سرّ إلهي يقذف في روع الكاتب ليصير كاتبا مريعاً بحق.

كتاب آيت لعميم، كتاب يجمع أعمال بورخيس ليُقابلها بالمنتجات المترتبة عن قراءة أعماله، وذلك لأهم قرائه، فإلى جانب بورخيس نفسه، هناك حضور لأرملته ماريا قداما، وحضور للناقدة البرازيلية ليلي بيرون موازي، والفرنسي بيير ماشري، وجون اروين، والإسباني خوان غويتسولو، والمغربي عبد الفتاح كيليطو، وأرون كيبيدي، والطّليانيان أمبرتو إيكو وانطونيو طابوكي، يشبهون في محاولتهم القبض على خورخي قصّة هؤلاء المكافيف الذين يريدون الإحاطة بالفيل، مع قَلبٍ للحكاية التي يقصّها مولانا جلال الدين، والتي وردت عند التوحيدي وابن عبد ربّه، والغزالي في **كيمياء السعادة**، وفي **حديقة الحقيقة** للسنائي باختلافات جزئية، عن الفيل الذي في حجرة مظلمة بينما كان الذين يحاولون تفقده عمياناً، فلمس كل واحد منهم عضواً، واطلع على جزء منه، وتعلق كل منهم بصورة له، وربط روحه وقلبه وراء خيالها، فصورة بورخيس هنا، لا يمكن القبض عليها في بانوراميتها إلا بصعوبة، بشكل قد لا يليق برصد هذه الصّعوبة غير قصة مولانا تلك، لكن مع مجموعة من المبصرين يحاولون الإمساك بهذا الأعمى الأرجنتيني.

يوفر لنا آيت لعميم في كتابه مادّة مهمة، ليس فقط عن هذا الضّرير المسحور بالرّفوف، وإنما لتطور تاريخ الأدب، بما هو بورخيس مدرسة، ولحظة فارقة في هذا التاريخ، يحتاج إلى التّعرف عليها، كما يؤكد ذلك آيت لعميم، كلٌّ من المفكرين والقصّاصين

والفلاسفة والقرّاء الشرهين والنّقاد المتحذلقين وغير المتحذلقين على حد سواء(9)، فخورخي كلّاً يمد، هؤلاء وهؤلاء، إلى جانب حاجتهم، جميعاً، إلى تواضعه، وإلى خجله الفطري الذي جعله لا يفخر بما كتب بقدر ما فخر بمقروءاته، ليكون دوما أمام نفسه مجرد قارئ بسيط، وأمام الجميع كأحد كهنة القراءة وحراس معابدها، وإلى موسوعيته وريبيته الدّائمة المشبوبة بقلق لا يكاد يهدأ إلا ويزيده قلقاً.

آيت لعميم رغم أنه يعرف أن بورخيس متاهة أو بالأحرى **بورخيس صانع المتاهات**، غير أنه لجأ إلى ترجمته إلى العربية؛ لغة أصحاب المتاهة الكبرى (الصحراء) كنوع من تحدي المتاهات لبعضها لربما، أو كشيء من هذا القبيل لا نعرفه أو لا نقدر على تثبته هنا، تحدي آيت لعميم كان موجهاً أيضا نحو بورخيس نفسه الذي ارتأىأن ابن رشد الذي كان يعرف كلّ شيء، لم يستطع فهمَ شيء واحد، ماذا كان يقصد أرسطو بمصطلح "التراجيديا" و"الكوميديا" أي فشل في ترجمتهما، تحدي آيت لعميم هو في الرّد على بورخيس في إمكانية إنطاق بورخيس نفسه بالعربية، دون قلق عبارة، وهذا ما يؤكده آيت لعميم بترجمته السّلسة والجميلة لبورخيس وللذين كتبوا عنه، سلاسة تقول أن إمكانات العربية لا تقل عن إمكانات أي لغة. سلاسة قراءة النّص المترجم التي تجعلك تتأكد أن المترجم قد قضى وقتا صالحا في فك شيفرات بورخيس الذهنية التي أنتجته وأنتجت لنا فيما بعد نصوص، سلاسة تؤكد لنا نحن قراءة الكتّاب/ الترجمة أن آيت لعميم كان يأخذ بعين الاعتبار حتى كآبة الجمل وفرحة الإحالات، ومزاج كل استعارة على حدة، ويحاول الانتباه إلى ضروب الجنون التي يتحلى بها أسلوب بورخيس الشعري والنثري، وهي التي تفرض نفسها على من يكتبون عنه أو يحيلون عليه، والتي يفشل كثيرون في رهان رصدها، كما وأن المترجم في اختياراته للكلمات يختار الكلمات التي تهب كلام خورخي خشوعه

الكهنوتي، فالرجل كان يكتب ويقرأ كما لو كان في صلاة، وفي سمت كاهن. ليتأكد لنا أن آيت لعميم شخصية بحق كانت مهيأة أصلاً للقيام باستضافة بورخيس في اللّسان العربي، لموسوعية يعرفها من أنصت له، ومن قرأ له على حد سواء، ولإيمانه بثقل المسؤولية الأخلاقية لفعل الترجمة.

يظهر جيداً أن آيت لعميم كان، ولزمن بعيد، متحمساً جداً لبورخيس ومشروعه الأدبي، فالكتاب كان أصلا مجموعة من الدراسات والمقالات، نشرها مُترجمها في منابر متعددة فرقت بينها المراحل الزمنية التي تنتمي إليها، لكن جمع بينها حب بورخيس أولا، وجمعت بينها دفتا هذا كتاب واحد، فيما بعد. ليدخل الكتاب بذلك ضمن خانة أدب الاعتراف، الاعتراف ببورخيس الذي ضحّى بنفسه، وبالكثير من وقته أمام الكتب حتى يكون في المستقبل كتّاب يشبهونه أو أكثر جودة منه، فالنّظر إلى المستقبل هو هوية حياته وحقيقة كل رؤاه يقول بورخيس: "اتخذتُ قراراً قلتُ لنفسي: "ربما أنني فقدتُ عالم المرئيات المحبوب، فيجدر بي أن أخلق شيئاً آخر: عليَّ أن أعمل على خلق المستقبل الذي سوف يعقب العالم المرئي الذي فقدته".

بورخيس صانع المتاهات هو منجز أدبي تخترقه رغبة جموحة من البرور ببورخيس الذي عرَفنا قبل أن نعرفه، وعرّف بنا قبل أن نُعرّف به، ورآنا قبل أن نراه، بل ورآى العالم من خلالنا(10)، بل لم يكن يرى غيرنا في لحظات معينة. سأله أحدهم مرة: "ما الشرق؟"، فأجاب "إن الإسلام هو الذي يتبادر إلى أذهاننا لأول وهلة"(11)، بل وكان يعتقد أنه بإمكانه، وجميع الأرجنتينيين معه، أن يجدوا جمالا في القرآن، وكذا أن يشبهوا محمداً(12)، لهذا ربما لم يتورع أن يرصّع قصصه بآيات من المصحف، مرة بمقتطف من الآية 13 من سورة العنكبوت، ومرّة بالآية 259 من سورة البقرة. وكان يتصور إله المسلمين

بطريقة تثير في نفسه كثيرا من الإعجاب بالتأكيد، ما دام أنه يمتلك في عليائه مكتبة، من خلال اعتقاده أن الله الذي عنده أم الكتاب "بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ"، لا يمكن أن يكون إلا صاحب مكتبة كبيرة في تصور بورخيس، باختصار يمكن تشبيه حالة بورخيس مع العرب بتغيير بسيط في قولة لابن العربي عن أبي حامد بإزاحة لموضوعها ومحمولها لتصير هكذا: "شيخنا بورخيس بلع العرب، وما استطاع أن يتقيأهم".

ارتباط بورخيس بما هو عربي يفهمه المترجم جيّداً، وهو ما كان دافعاً له، ضمن دزينة دوافع أخرى، في ترجمته، من بينها أيضا تجديد خورخي أسفه مراراً عن عدم تعلم العربية لأنها لغة أسلافه الأندلسيين والتي كان تعلُّمها، بالنسبة له، واجباً مقدساً، وربما هذا ما جعله يكتب في بدايات أمره بأسماء مستعارة من بينها: المعتصم المغربي، وأبو القاسم الحضرمي، وليجعل تيمة كثير من أعماله عربية صِرفة، كـ: "ابن خاقان البخاري، ميت في متاهته"، و"حجرة التماثيل"، و"الحمراء"، و"الدّنو من المعتصم"، و"بحث ابن رشد"، و «مكتبة بابل». الحب هذا للعربية مرضٌ وراثي جميل ومفيد جداً، ورثه بورخيس عن والده الذي ترجم رباعيات الخيام إلى الإسبانية(13) والتي سيترجمها الإبن، من جهته، إلى اللاتينية، ورغم أنه لم يتعرف بشكل رسمي إلى العربية، غير أنه مات وفي قلبه شيء من اللّغة العربية كما ذهب كيليطو، إذ يُذكَرُ أنه شرع في محاربة أميته في لغة الضّاد على يد أستاذ مصري من الإسكندرية، ولكن لربما شاءت أقداره الغريبة أن يبقى فيها أميّاً كما النّبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام لا كما هو شأن إتقانه للإنجليزية، والألمانية، والفرنسية، والإسبانية لغته الأم، إن كانت هناك لغة أم بالطّبع. كما أن خورخي من جهة أخرى جدّد علاقتنا بالمنسي من تراثنا العربي، والذي لطالما نجلنا من نسبته إلينا لربما. تجديد علاقتنا بشهرزاد التي نسينا، كعرب، دروسها كاملة، خاصة درس أن الموت الذي يحيق بنا كل صباح، ويأتينا من

كل صوب، هو موت نستحقه لعدم قدرتنا على إبداع قصص جديدة وحكايا جديدة ندفع بعا عربة الحياة إلى الأمام كل صباح. آيت لعميم وشهرزاد وبورخيس يجمعون من خلال هذا الكتاب على أن واجب الكاتب نحو عصره، هو في أن يكون كاتباً نعم، لكن مع محاولة أن يكون كاتباً جيداً، و هذا هو واجبه الوحيد لربما.

مسؤولية ترجمة بورخيس إلى العربية، تبقى إذن، مسألة بالنُّبل بما كان، إنها في مقام ردّ الجميل، لكنه ردّ جميل بطريقة أخرى، لرجل رأى العالم في حرف "الألف" العربي، بقولته السّاحرة: "لقد رأيت الأرض فوق الألف"، فبالرغم من أن قُطر "الألف" كان ربما بوصة واحدة، ولكن كل الفضاء يمكن رؤيته من خلاله، يميز من خلاله بوضوح كل أركان الكون: رأى البحر اللّجاج، والنّهار واللّيل، رأى أمريكا بصورها المتعددة، ورأى عش العنكبوت وسط الهرم الأسود، ورأى أزقة لندن، والفناء الخلفي لبيته بنفس بلاطاته كما كانت من ثلاثين عاما، ليعنون مؤلفا له بهذا الحرف الذي رآه ابن عربي أصل جميع الحروف لرمزيته الإلهية(14).

كتاب **بورخيس صانع المتاهات** يشبه في مقالاته الموزعة والمختلفة أسنان مفتاح خاص لفتح أبواب عالم بورخيس، فكل دراسة هي جواب عن علاقة ما لبروخيس بشيء ما، هي فك للسر ما، وإضاءة لجوانب حدث ما في حياة بورخيس العلمية وحتى الخاصة، بداية بعلاقته بمراكش، ومكانة ابن رشد وشهرزاد عنده، إلى علاقته بالكتب ونُسخ "ألف ليلة وليلة"، وتعامله مع تفعيلة الهايكو اليابانية والأشكال الشعرية التي نسلت منه ك"التانكا" اليابانية أيضا، إن كل مقال هو تيمة من تيمات المشروع البورخيسي، وسن من أسنان هذا المفتاح/ الكتاب الذي يضعها آيت لعميم بكرم حاتمي في كفّ كل واحد فينا ليدخل مكتبة خورخي ويأخذ أو يسرق منها الكتاب الذي يريد.

كتاب **بورخيس صانع المتاهات** هو إلى جانب هذا، كتابُ فضيحة، يفضح أسرار إبداع بورخيس للعموم، ورصد طرق وحيل ألعاب خفّته، وخبايا أسلوبه في حياكة براهينه العجيبة، براهين حتى على العبث نفسه، وابتكاراته الخارقة لأحلامه وصقله لمراياه، ولأجل الظفر بوصفته السّحرية في التّنكر والهروب ووضع الكمائن السّرية والأحبولات المنهجية في القصّ والحكي والبرهنة من داخل الكتابة الفلسفية الممزوجة بالنفس الشّعري والحكي القصصي، كتاب يخبرنا بكثير من تحايلات خورخي، تحايلات أعطت للكثيرين ذريعة للتأكيد أننا جميعا كنا مضحوكاً علينا، إذ أن "بورخيس" لم يكن إلا شخصية وهمية كما مخلوقاته الوهية ربما، شخصية اختلقتها مجموعة عمل، بمستوى عال من المكر والكفاءة المهنية، قامت بالتّرويج لها بشكل جعل الحيلة تنطلي على الجميع، ليتم إنكار شخصيته.

إنه وعلى طول الـ 254 صفحة، لا يقوم الكتاب إلا بكشف المستور و"المستخبي" في التّجربة الإبداعية لخورخي، كيف يحول جنّ الكتب النّصوص الرّديئة إلى نصوص عظيمة؟ وكيف يتعقب هذا العميل السّري للاستعارات النّصوص العظيمة ليجعلها في مقام ما كنا نعتقد فيه الرداءة؟ إنه كتاب شيطاني بامتياز، إذ أن موضوعه هو التفاصيل المملة في عمل بروخيس وتفاصيل آليات نصبه للفخاخ وطرق اشتغاله واستدراجه، والشيطان كما يعلم الجميع يختار سكن التفاصيل، والتفاصيل هي التّيمة المهمة التي يشتغل عليها أي مهندس للمتاهات بما فيهم، المغرم بها، بورخيس، الكتاب بهذا يعطي القارئ وعداً بأن هناك أشياء كثيرة يملكها ـ أي القارئ ـ، لكنه لا يعطيها أي قيمة، أشياء وأفكار قد تكون بالغة السذاجة، لكنها قد تكون حاسمة في عملية إبداعه هو، لأنها قد تكون في حجم الكمائن التي اعتمدها بورخيس في بيان موهبته في جعل ما هو عند الآخرين رثاً أو رديئاً يواكب الذّوق البسيط إلى شيء بالغ الجودة وراق جداً. لكنه حتى وإن كان كتاب فضح

وهتك للأسرار، فإن بورخيس كان يريده أكثر تهتكاً وتجاوزاً لربما، يقول بورخيس: "كل مرة أقرأ فيها مقالة تنتقدني، لا أجدني أتفق مع كاتبها، ولكني أحس أنه كان بمقدوري أن أعمل عمله على نحو أفضل بكثير. قد يتعين علي ربما، أن أنصح أعدائي المفترضين بأن يبعثوا لي بانتقاداتهم قبل أن ينشروها، ضامنا لهم معونتي وسندي. بل كثيرا ما راودتني الرغبة، خفية، أن أكتب باسم مستعار مقالة لا رحمة فيها، ضدّي".

الترجمة هي تخصص بورخيسي بامتياز، أتقنه خورخي جيداً، ما دام الأدب كله، عنده، ينحدر من هذا النّشاط(15)، ونبوغه الأول كان على صعيد التّرجمة، ففي سن التّاسعة، ترجم خورخي كتاب "الأمير السعيد" لأوسكار وايلد إلى اللّغة الإسبانية. رغم أن أناساً كثيرين شكّكوا في قدرته، لأن المترجم الحقيقي للكتاب لم يكن غير والده، فالترجمة تنبثق في الأصل عن الكفاءة الموسوعية التي تكون للمترجم على مستوى اللغة والمعارف، وهذا ما يمكن إسقاطه على المترجم أيضاً، إحالات المترجم وانتماءات أصحاب المقالات المترجمة تظهر مدى الموسوعية التي تنبثق عنها اختيارات المترجم آيت لعميم، وبقدر ما تصنف المحتفى به في الكتاب بقدر ما تصنف المترجم نفسه، وتفضح هوسه بالتوجهات المعرفية الشّتى التي تحيل عليها الدراسات المتنوعة، بشكل يضمن للكتاب موسوعية مخيفة ويضمن للمترجم سحره، وكونه يأبى أن يكون إلا عنيدا في تضمين كتابه كل ما يهب القارئ كل ما يجب أن يحوزه عن حارس الكتب والمكتبات بورخيس، ليترك النّصوص تتحاور فيما بينها، وتناقش بعضها سامحة للقارئ المتخصص والبسيط متابعة بورخيس في سائر تحولاته وانزياحاته وتطوراته.

لقد كانت اختيارات آيت لعميم للدراسات والحوارات المترجمة مبررة إلى أقصى حد، والخيط الناظم لها كان واضحاً جداً، متعاونة في نسج صورة خورخي التي يمتزج فيها

وفيه الخرافي بالواقعي، مع مقدرة ساحرة من المترجم على إمداد كل جملة، بما يليق بها، من كلمات لا تُقلق تلقي القارئ، ولا تشوش على صورة خورخي، لتكون الترجمة هنا بعيدة عن مشاعر الكآبة التي تَنتج عن إحباطات التعامل مع الترجمات المضطربة والغامضة والخشنة، وتدبير كمّ الاستعارات التي تتخلل أعمال خورخي وتُخل بأعمال الذين يكتبون عنه، تدبيراً يحفظ للعربية خصوصيتها، ويحفظ لخورخي نبوغه الجارف وفتنته.

وأنت تكاد تنهي الكتاب يتأكد لك أن قدرة المترجم لا يمكن مجارتها، في إعادة قول أشياء قالها آخرون بلغات ما، لكن بطريقة أكثر جودة وأكثر حياكة من جهة آيت لعميم. فرغم أنه يعرف خطورة خورخي وما يعتور رصد حركية استعارات بورخيس ومن حيوية معانيه البعيدة، ومن صعوبة تحصيل أبعاد مرجعياته الفلسفية والأدبية غير أنه جازف في نقله للعربية، وكسب إلى حد بعيد رهان المجازفة ورهان الترجمة، فرغم حيل ومكر المترجم له، يبقى المشي خلفه مع آيت لعميم متعة، قد تنتهي من جهة القارئ مع خورخي إلى صداقة أبدية، ولنتذكر هنا أنه في عصر بيرون كان يتبع خورخي مخبر خاص، كان خورخي يتعبه في نزهات طويلة دون اتجاه. ولكنه في النهاية، ومن طول الطرق التي سارى فيها معا، أصبحا صديقين حميمين.

1-***بورخيس صانع المتاهات***، ترجمة وتقديم: د. محمد آيت لعميم، كتاب جماعي، المركز الثقافي العربي، 2017.

2-***بورخيس صانع المتاهات***، ص 29.

3-**بورخيس صانع المتاهات**، ص 31.

4-الغريب أن خورخي كان يكرهه هو والمرايا بالنسبة بدعوى غريبة أنهما يضاعفان عدد الرجال، والأشد غرابة أن يوافق في هذا ضرير معرّة النّعمان.

5-**بورخيس صانع المتاهات**، ص 192.

6-لا ننسى هنا المجهود الكبير الذي بدله آسين بلاسيوس على مستوى كتابه «الأصول الإسلامية للكوميدية الإلهية لدانتي»، أو «الأخرويات الإسلامية في الكوميدية الإلهية»، حيث كرّس مئات الصفحات لإنصاف السّرديات الإسلامي، وتجريحا في مسألة

أصالة النّبوغ الأوربي مُجرداً لدانتي ومعه «الكوميدية الإلهية» مما علق به تهويل وهيبة أسطوريين، ليربطه بالإسلام، بشكل جعل إيكو المهووس هو الآخر بدانتي يطرح السؤال التالي: "هل تبقى قراءة كتاب آسين بلاثيوس منطقيّة ، بعد أن سمح كمّ كبير من البحوث المتتالية بتجسيد مزاعمه؟"، ولينسحب هذا السؤال على قراءة دانتي بنفسه. هذا النّقاش، بالتأكيد، كان يعرف جيّداً حقيقته وجذوره البعيدة خورخي، وهو الذي يعتبر «الكوميدية الإلهية» أعظم أثر أدبي على الإطلاق.

7-خورخي لويس بورخيس، صنعة الشّعر، ترجمة صالح علماني، دار المدى، ط 2، 2014، ص 21.

8خورخي لويس بورخيس، صنعة الشّعر، ص 159.

9-**بورخيس صانع المتاهات**، ص 9.

10-الإشارة هنا إلى قولته السّاحرة: "لقد رأيت الأرض فوق الألف".

11-عبد الكبير الخطيبي، "بورخيس، والشرق العربي"، ضمن **مجلة آفاق**، ع 2، 1 يونيو، 1992، ص 93.

12-المرجع نفسه، ص 93.

13-**بورخيس صانع المتاهات**، ص 28.

14-خورخي يحاكي، هنا، بشكل غريب، نصوص ابن عربي في محاولة الأول أن يصنع من الألف معجزة أدبية، ومن خلال محاولة الثاني بيان أهمية الألف وإعجاز أسراره الإلهية، من كون الحق، مثلاً/ أشهده أن **الحروف كلها هي موسى والألف وحده هي العصا**، لكونه احتوى كل الكون وسر الألوهة، لقيوميته ووقوفه للحق"أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ" (**الفتوحات المكية**، ضبطها وخرج أحاديثها أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ج 3، ص 182). يقول ابن عربي في تناص مع نص خورخي حول رؤية الكون من خلال كوة الألف: «وفي ليلة تقييدي لهذا الفصل (...) رأيت في الواقعة ظاهر الهوية الإلهية وباطنها، شهودا محققاً ما رأيتها قبل ذلك في مشهد من مشاهدنا فحصل لي من مشاهدة ذلك من العلم و اللذة والابتهاج ما لا يعرفه إلا من ذاقه فما كان أحسنها من واقعة لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (...)» (**الفتوحات المكية**، ضبطها وخرج أحاديثها أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ج 4، ص 118). ليُساير خورخي ها هنا طرح الصوفي عن أسرار الحروف، ويُسايق المنزلة التي للألف عندهم، إنه محل الأسرار وكنز الألغاز، ف كل العالم ألف، وكل المشاهد هو لها كوة ومرآة.

15-**بورخيس صانع المتاهات**، ص 121.